أبو / مكتبتنا العربية

الأستاذ

تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد

المجلد العاشر

بعددية

١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م

١٠

مطبعة الحكومة ـ بغداد
١٩٦٢

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سيبويه
أثره في تطور الثقافة العربية ومنهجه في البحث العلمي
(١)

للاستاذ كمال ابراهيم
عميد كلية التربية ورئيس قسم الآداب الموحد بجامعة بغداد

تمهيد :

كانت البصرة اول مدينة مصرت بعد الاسلام ، واستوطنتها قبائل العرب الفاتحة ، ومن لحق بهذه القبائل بعد ذلك وآثر الاقامة في العراق ، وقد سبقت بناء الكوفة بستة أشهر على الصحيح وظلت رقعتها تتسع ، وسكانها في ازدياد ونمو ، حتى ذكروا ان سكانها من رجال فقط بلغوا الى عهد المنصور خمسمائة الف رجل اذ فرق فيهم ألف الف درهم فأصاب كل واحد منهم من ذلك درهمين ، واذا كان هذا النمو المطرد المتلاحق في سكانها ، يعطينا صورة عن تضخم هذا المجتمع الجديد ، واتساع العمران ، ويدل على المكانة التي تبوأتها البصرة في العالم الاسلامي حينذاك ، فانه يعكس لنا صورا أخرى من الحياة الحضارية والحركة الثقافية وتطور الفكر العربي الاسلامي في اول حاضرة من حواضر الاسلام أنشئت بعد فتح العراق .

والحق ان عوامل عدة فعلت فعلها في ابتعاث هذه الحضارة وتنامي الحركة الثقافية والفكرية بتلك السرعة البالغة ، اذا أنها ما لبثت بعد انشائها بقليل حتى اصبحت مركزا سياسيا وعسكريا واقتصاديا هاما بحكم اطلالها على البحر وطرق البر وقربها من بوادي العرب كما اصبحت مركزا أدبيا بارزا ، ومنارا للثقافة الاسلامية يشع بنوره الساطع على البلاد الاسلامية كلها ..

سكنها في نشأتها الاولى فريق من الصحابة ؛ ونزل فيها الامام علي ابن ابي طالب (ع) واختلف اليها ، ثم سكنها سادات التابعين وعظماء العرب ورؤساء قبائلهم كالاحنف بن قيس سيد تميم البصرة والحكم بن الجارود سيد عبدالقيس ومالك بن مسمع سيد بكر البصرة وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ونظراؤهم ونزلها أنس أبن مالك وكان للحسن البصري وابن سيرين أثر ايما اثر في الحياة الاسلامية والثقافية الدينية فيها . كما كان للمبرد أثره في الثقافة الادبية واللغوية والنحوية ، اذ كانوا يخرجون اليه ليتناشدوا الاشعار ويلقوا الرواة ويقبسوا اللغة عن فصحاء العرب ، ويأخذ

النحاة ما يستعينون به على تصحيح قواعدهم او استنباط الجديد منها • روى القالى فى الامالى عن الاصمعى قال : « جئت الى أبى عمرو ابن العلاء فقال لى : من اين اقبلت يا أصمعى ؟ قلت : جئت من المربد ؛ قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، فمرت به ستة احرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة ، وقال : «شمرت فى الغريب» اى غلبتنى [١] » وقال ياقوت فى معجم الادباء « ان الجاحظ تلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد [٢] »

وبحكم ان البصرة أول مدينة مصرت بعد الاسلام وكانت وسطا بين بلاد العرب وفارس ، فقد سكنها كثير من الفرس وخالطوا أهلها ، فكان ذلك داعية نشوء اللحن وفساد الالسنة وظهور اللغة العامية كما كان فى سواها وبحكم كونها قد غدت مركزا لعلوم الدين ولعلوم العربية اصبحت مرتاد كل طالب علم من ابناء العرب وابناء العجم جميعا ، فاتسعت حلقات العلم فى المساجد وفى غير المساجد ، وزخرت بحركة علمية هائلة ، تنهل من فيضها البلاد الاسلامية قاطبة •

وكانت الثقافة السائدة فى هذه الحلقات والمجالس يكاد يجمعها نوعان من الدراسة هما (١) الثقافة الدينية التى تشمل علوم التفسير والحديث والفقه والكلام والمواريث وما يتصل بهذه العلوم (٢) الثقافة اللغوية والادبية التى تنتظم علوم الادب والرواية والسير والامثال والنحو الصرف واللغة والعروض والقافية وما يتصل بهذه العلوم كالايام والمغازى وقصص العرب •

على ان الاتصال كان جد وثيق بين النوعين من الدراسة فأكثر الدارسين يدرسون هذه العلوم كلها او معظمها حتى اذا غلب على احدهم فى الحذق والضلاعة أحد هذه العلوم ، عرف به اكثر مما يعرف بسواه ، وقد يوغل فى التخصص به والاحاطة بدقائقه حتى يغدو اماما فيه ، فيتصدى للتدريس وعقد الحلقات ، وتقرير الحكم والرأى فى كثير من المسائل العارضة • وعلى هذا الاساس قيل : فلان فقيه وفلان راوية وصاحب أخبار ، وفلان نحوى أو لغوى ، وفلان متكلم ، او من اصحاب الرأى والجدل والقياس وهكذا ، وقل أن تجد فى هذا العصر وما بعده من لم يجمع بين هذه العلوم ويلم بها ، أو يصنف فى انواع منها ، وان غلب عليه احدها • فأبو عمرو بن العلاء جمع ما لم

(١) الامالى ٣ص ١٨٢ • المعجم ج ٦ص ٥

يجمع غيره من شعر العرب وأخبارهم والعلم بالغريب والشواهد وكان من ائمة القراء ، كما كان كذلك فى النحو واللغة وكان الخليل بن احمد صاحب علوم جمة تنتظم الشعر والمعرفة بالغريب والنحو والاشتقاق والتصريف واللغة والعروض والموسيقى والنغم فاشتهر على الاكثر بما اخترع وصنف ، وقل مثل ذلك فى ابى زيد الانصارى ويونس ابن حبيب وخلف الاحمر وأبى عبيدة والاصمعى وسيبويه والاخفش وغيرهم .. وكانت بداية سيبويه فى دراسته هى دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين على الغالب ، حتى دفعته لحنة من اللحنات الى ان يقبل على الخليل ليقيم لسانه على الصواب باتقان النحو ، فغلب بعد ذلك عليه واشتهر به .

اصل سيبويه ونشأته :

هكذا كانت البصرة حين غدت مرتاد كل طالب علم ، فاقبل على تلك الحلقات وشيوخها وبخاصة حلقات العربية طوائف من ابناء فارس منهم من كان يستوطن البصرة ، ومنهم من قصد اليها للتعلم ، اذ وجد أن هذه السبيل هى خير السبل الميسورة لامثالهم ، للارتزاق والتكسب عن طريق خدمة الدولة بالكتابة فى دواوينها او طريق التعليم والتأديب ولا سيما اذا بلغ بأحدهم فضله الى أن يكون مؤدب ابناء الخلفاء او الامراء أو سراة الناس ، ولذلك كانت حلقات النحويين واللغويين اكثر الحلقات حفلا بأمثال هؤلاء ، ولانهم من الجهة الاخرى اكثر حاجة الى تقويم ألسنتهم بهذه العلوم من ابناء العرب ، وان تسرب اللحن الى ألسنة هؤلاء كذلك .

وقدم سيبويه البصرة وهو غلام يفعة وضيىء الوجه جميل الطلعة حسن السمت رزين يزينه الوقار بما يبديه اكبر من سنه وديعا سمحا حسن العشرة ، فعرف بلقبه « سيبويه » وهو تركيب فارسى من لفظتى « سيب » و « ويه » اى رائحة التفاح [1] اكثر مما عرف باسمه وهو « عمرو بن عثمان بن قنبر » او بكناه وهى « أبو بشر وابو الحسن وابو عثمان » وأشهرها الاولى .

وكان مقدمه من « البيضاء » من اعمال فارس وهى من كورة اصطخر على ثمانية فراسخ من شيراز سميت هذا الاسم لبياض ظاهرها اذ كان يبين من بعيد ، واتخذها

---

(١) لقب بذلك قيل لان امه كانت ترقصه وهو طفل فتدعوه به ، وقيل ان من يلقاه كان يشم منه رائحة الطيب او لقب به تشبيها لوجهه بالتفاح الى غير ذلك من التأويلات ، والقول الاول ارجح لان هذا اللقب جاء به معه من فارس ، ويبدو انه منذ الطفولة .

المسلمون معسكرا لهم فى فتح اصطخر وهى بليدة طيبة تامة العمارة وافرة الخصب كثيرة الغلال • جاء فى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : « ولد سيبويه بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء من عمل فارس ، ثم قدم البصرة ليكتب الحديث » •

اما مولده فى هذه القرية فلم يحدده أحد ، كما لم يكتب من كتب عنه شيئاً ما يتصل بنسبه وأسرته خلا اسم ابيه وجده ، اذ لم يكن هذا المولود الناشىء ليؤرخ له وما هو الا من غمار الناس ، ولكنا علمنا انه كان يدين بالولاء لبنى الحارث بن كعب ، على ان نوع هذا الولاء لهذه القبيلة اليمانية لم يكن فى اصله ليعرف أهو ولاء عتق ام ولاء اسلام ؟ كذلك لم يكن ليعرف بالتحديد السن التى قدم فيها البصرة وغشى حلقات دروسها ، وان كانوا قد ذكروا انه قدم اليها وهو غلام ، وقد روى عن أبى زيد الانصارى انه قال « كان سيبويه غلاماً يأتى مجلسى له ذؤابتان » •

مصادر ثقافته :

وجرى سيبويه على الطريقة التى يجرى فيها طالبو العلم حينذاك ، فحضر حلقات عدة ، وكان همه أول أمره دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين الاخرى واتخذ من دروس العربية ما يعينه على تفهم حقائق الدين والتفقه فى احكام الشريعة وفهم القرآن الكريم ، قال القفطى (٢) : « كان سيبويه فى اوائل ايامه صحب الفقهاء وأهل الحديث » وكان اكثر من صحب من هؤلاء « حماد بن سلمة » وكان محدثاً فقيها عالما بالعربية فصيحاً بليغاً ، روى له مسلم والاربعة ، ويعد من اشياخ البصرة المقدمين ، وقد لازمه سيبويه طويلا وأخذ عنه كثيراً ، ولم ينقطع عنه حتى بملازمته الخليل بن احمد الا بزمن ، وقد ذكروا أن لحنة لحنها فى مجلس حماد دفعت به الى التزيد فى طلب العربية وملازمة الخليل ، قال صاحب طبقات النحويين : « فبينا هو يستملى على حماد بن سلمة قول النبى صلى الله عليه وسلم : ليس من اصحابى الا من لو شئت لاخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه : ليس ابو الدرداء ، وظنه اسم ليس ، فقال حماد بن سلمة : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، انما ليس ههنا استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم لاطلبن علماً لاتلحننى فيه ابداً ، ثم لزم الخليل » •

ولا ريب ان تعقيب سيبويه على حماد بالتصحيح على زعمه يشعر انه كان على ثقة بنفسه فى اطلاعه على العربية بما كان له من دراسات سابقة ولا حقة فيها بحيث اراد ان

(٢) كتاب انباه الرواة على انباه النحاة ج ٢ ص ٢٥٥

يستدرك على مثل حماد أو يخطئه فيما نطق ، ويروى صاحب الطبقات لحنة اخرى وقعت له فى مجلس حماد فيقول : « وقال عبيدالله ابن معاذ العنبرى البصرى : جاء سيبويه الى حماد بن سلمة ، فقال : أحدثك هشام بن عروة عن ابيه فى رجل رعف (نطقها بضم العين) فى الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت ، انما هو رعف (بالفتح) فانصرف الى الخليل ، فشكا اليه ما لقيه من حماد ، فقال : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا . ورعف (بالضم) لغة ضعيفة والصحيح رعف (بالفتح) .

ولما لازم سيبويه الخليل كان على قدم ثابتة فى علوم الفقه والقراءات والحديث ، وتذكر له الروايات عدة مسائل دقيقة فى هذه العلوم كانت تعرض له فى حلقته او يستطرد اليها تشعر بدقة فهمه وواسع اطلاعه ، وكان تضلعه فى العربية والنحو خاصة قد زاد الى نضجه واكتماله اكتمالا آخر .

تجد لذلك دلائل مما كان يقع له فى حلقات دروسه او مما رواه فى كتابه ، ذكر محمد بن سلمان قال « كان سيبويه النحوى جالساً فى حلقته بالبصرة ، فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر حديثاً غريباً ، وقال : لم يرو هذا الا سعيد بن أبى العروبة ، فقال بعض ولد جعفر بن سليمان : ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟ فقال : هكذا يقال : لان العروبة هى الجمعة ، ومن قال عروبة فقد أخطأ ، قال ابن سلام : فذكرت ذلك ليونس ، فقال : أصاب لله دره ! وفى كتابه اشارات الى طائفة من القراءات ، فيقول : وكان فلان يقرأ هذا الحرف وفلان يقرأ هذا الحرف ، وهذه فى قراءة ابن مسعود وأمثال ذلك ما يروى له مما ينم عن مبلغ علمه باللغة ، وقد روى صاحب الطبقات عن ابن عائشة ، قال : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد ، فبينا نحن عنده ذات يوم اذ هبت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر اى ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من صفر ، فنظر ثم عاد ، فقال : لا يثبت الفرس على شىء ، فقال سيبويه : العرب تقول فى مثل هذا تذاءبت الريح ، اى فعلت فعل الذئب ليختل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب » . وقال ابو اسحق الزجاج [1] « اذا تأملت الامثلة فى كتاب سيبويه تبينت انه اعلم الناس باللغة » .

فنرى من هذا ان سيبويه كان يمثل فى شخصيته العلمية الحياة الثقافية السائدة فى البصرة فى هذه الفترة ، ويجمع فى الحقيقة بين الثقافتين الدينية واللغوية ، وتضلع

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٧٣

منهما على ايدى شيوخ البصرة وأئمتها ، ولكنه عرف بالنحو واشتهر اذ فرغ له فـــى النهاية أكثر من غيره ، وعقد مجلسه عليه ، وصنف فيه ، واستنبط وقاس وعلل وولد ، حتى لقب بسيبويه النحوى ، واصبح فيه حجة الحجج ، وامـــام البصـــريين وصاحب مذهبهم فيه • وهو بسبب ما عرف فيه تطرق الرواة لذكر شيوخه ومن اخذ عنهم مـــن النحويين كما عرضوا لتلامذته ، ولم يذكروا شيوخه فى العلوم الاخرى الا عرضاً حين يتصل الخبر بدراسته النحويه تلك •

وذكروا من شيوخه فى العربية الخليل بن أحمد وهو رأس الطبقة الثالثة ، وكان سابق الحلبة فى سائر علوم العربية ، وفى استخراج المسائل النحوية خاصة ، ولو لـــم يؤلف فى هذا العلم ، فورث سيبويه علمه فيه وزاد عليه ، ومن شيوخه كذلك يونس ابن حبيب النحوى وهو من طبقة الخليل وانقطع للنحو اكثر من غيره ، قال أبو عبيدة ، قيل ليونس بعد موت سيبويه ان سيبويه صنف كتاباً فى الف ورقة من علم الخليـــل ، فقال : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ، جيئونى بكتابه ، فلما رآه ، قال يجب ان يكون قد صدق اذ صدق فيما نقل عنى • كما أخذ عن عيسى بن عمر الثقفى وهو من الطبقة الثانية اخذ عنه النحو ، وأخذ اللغة النحو معاً عن أبى الخطاب الاخفش الاكبر وهو من الطبقة الثانية كذلك ، كما اخذ الرواية والشعر والاخبار عن أبى زيد الانصارى والقراءات عن ابى عبدالله هارون بن موسى البصرى وروى عنه احرفاً فى القراءة فى كتابه ونقل عن أبى جعفر الرؤاسى من الكوفيين •

وهو الى كل ما أخذ عن هؤلاء الائمة الذين بلغوا فى علوم العربية الغاية وأحسنوا استخراج مسائلها وقياسها لم يقف عند هذا الحد ، لا يزيد ، ولا يأتى عليهم بجديد ، بل خرج الى بوادى العرب ، وطوف فى قبائلها وخالط الاعراب ، وشافه الفصحاء وأخذ عنهم وروى وكتب ، واستخرج المسائل وقاس وعلل بما أوتيه من علم جم وبصر نافذ ، وفطنة مدركة فزاد على ما جاء به أسلافه ، وبلغ فى ذلك الغاية ، قال ابن خلكان (١) : « كان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه ، وذكـــره الجاحظ يوماً فقال : لم يكتب الناس فى النحو كتاباً مثله وجميع كتب الناس عليه عيال » •

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٧٣

ولهذه المنزلة التى بلغ اليها سيبويه فى علوم العربية والنحو خاصة اصبح امامه الذى لا يدافع ، فلا يذكر النحو الا بسيبويه ولا يذكر سيبويه الا به حتى كأنه هو موجده ومخترعه ، وغدا فى اقواله وآرائه شاغل أهل العربية منذ كان الى يوم الناس هذا ، وما دام للعربية ظل على وجه الارض .

كتاب سيبويه :

اشتهر سيبويه بعد عصره خاصة الى اليوم بكتابه المعروف فكان فيه من الخالدين ، وعرف مذهبه النحوى فى شتى المسائل بما ضمنه كتابه هذا ، وكان للكتاب مكانة جليلة لم يبلغ اليها كتاب فى النحو آخر ، حتى غدا موضع عناية ائمة العربية وغاية طلابها ، فقدره الناس حق قدره ، وعرفوا له يده على العربية عامة ، حتى ذكر اكثرهم انه لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده ، وهذا الجاحظ [1] مثلا يقول : لم يكتب الناس فى النحو كتاباً مثله ، وقال : اردت الخروج الى محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ففكرت فى شىء اهديه له ، فلم اجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه ، فلما وصلت اليه قلت له : لم اجد شيئاً اهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، وقال : والله ما اهديت لى شيئاً احب الى منه . ورايت فى بعض التواريخ ان الجاحظ لما وصل الى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل احضاره ، فقال له ابن الزيات : أو ظننت ان خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائى وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ يعنى نفسه ، فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجد وأعزها ، فأحضرها اليه ، فسر بها ، ووقعت منه أجمل موقع . »

على أن هذا الكتاب . على ما يعتقد ـ لم يكن قد ختمه صاحبه او فرغ من تأليفه حين اخترم ، ولم يكن لكثير من اصحاب سيبويه او تلامذته علم به فى حياته فلم يقرأه على احد ولم يقرأه عليه احد ، وجاء ظهوره حدثاً فاجئاً لهم ، فبهرهم بكل ما فيه ، وعكفوا عليه ، وعكف عليه من بعدهم حتى سموه « قرآن النحو » ذلك ان سيبويه فى الحقيقة لم يسمه هذا الاسم « الكتاب » بل كان غفلا من ذلك ، ولم يجر على عادة اهل زمنه فى تسميته المؤلف بأكثر ما فيه أو أهم ما فيه ككتاب الاشتقاق والمقاييس للاخفش

(١) وفيات الاعيان ج٣ص ١٣٣

والعين للخليل ، اذ كان على عزم أن يعود اليه حتى اذا فرغ منه تماماً على ما يرى وضع له عنوانه ، فلم يطل به الاجل الى ذلك ، ونجد لذلك ان الكتاب لا مقدمة له ولا خاتمة كما هي طريقة تأليف الكتب ، فأن أوله : « هذا باب علم ما الكلم في العربية ، وآخره قوله : ومثل هذا قول بعضهم « علماء بنو فلان ، فحذف اللام ، يريدون على الماء بنو فلان ، وهي عربية » .

وتداول الناس هذا الكتاب واستنسخوه واستملوا منه ، فميزوه من سواه بهذا اللفظ الذي اطلقوه عليه ، حتى عرف به وشهر ، وصار اذا اطلق لا يفهم منه غيره .

لقد حظي كتاب سيبويه أجل حظوة عند أهل العربية كافة مما لم يكن لكتاب غيره قبله أو بعده ، فما اسباب ذلك ؟ وما هذه الخصائص التي اختص به دون غيره من الكتب .. ؟ .

نستطيع ان نجمل ذلك بما يأتي :

١ - كان أول كتاب جامع في النحو ، وبهذه الصفة من الاحاطة واستيعاب المسائل ، فلم يغادر من موضوعات النحو والتصريف مسألة قد نظرت من قبل دون أن يعرض لها ، وكان ما ألف قبله من كتب في هذا الغرض قليلة لا تجاوز أبواباً منه ، او اشتاتاً من المسائل ولهذا حين ذكر لابي زيد ان سيبويه قد ألف كتاباً بألف ورقة دهش لذلك ، وظن أنه نحل أو لفق حتى وقف على ما فيه فصدقه .

٢ - معرفة أهل العربية بسيبويه من أنه ثقة صدوق في نقله وروايته فقد كان أميناً على ما حكى عن الخليل في مجالسه وما حكاه عن سواه ، فعدوا كتابه غاية في الصدق ، وحجة قاطعة في الرجوع اليه ، والاخذ عنه .

٣ - جمعه بين ايراد المسائل والامثلة والتفريع عليها ، والاستخراج منها ، والقياس على النظائر والتعليل ، فهو يجمع بين المادة العلمية المنقولة ومبادىء الفلسفة النحوية ، وكثيراً ما يقول : والقياس كذا .. او والقياس يأباه .

٤ - لما كان سيبويه قد آلت اليه امامة اهل البصرة ، كان كتابه مرجع آراء البصريين من النحاة وممثل مذهبهم النحوي ، فغدا الكتاب مرجعاً ثبتاً لهذا المذهب واتضحت فيه خطوطه ومعالمه اذ تقرر رأي رئيسه فيه .

٥ - كثرة ما فيه من الشواهد ، فقد جمع فيه من شواهد الشعر الفاً وخمسين بيتاً ، حققها وصححها واعتمدها ، ونسبها الى قائليها الا خمسين منها ، قال الجرمي : «في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سألته عنها ، فعرف ألفاً ولم يعرف الخمسين» اذ على الرغم من هذا التثبت الذى عرف به سيبويه فى ايراد الشواهد فقد وقع له شيء جاز عليه ، والغالب انه داخل فى تلك الخمسين ؛ جاء ان سيبويه سأل اللاحقى : هل تحفظ للعرب شاهداً على اعمال (فعل) ؟ ، قال اللاحقى فوضعت له هذا البيت ، وأدخله فى كتابه :

حذر اموراً لاتضير وآمن

ما ليس منجيه من الاعداء

وهو ما استشهد به اكثر النحاة فى كتبهم • كما أن فى الكتاب كثيراً من كلام العرب وأمثالهم •

٦ - لم يكن كتاب سيبويه مجموعة ضوابط نحوية جامدة للالفاظ والنطق بها واستعمالها ، بل كان مجلى من مجالى البيان فى الشعر والبلاغة وفصاحة الكلام ففى الشعر يستطرد الى ما له صلة بتلك الشواهد الشعرية الكثيرة ، فهو معلم أدب ونحو ولغة وبيان ، وهو فى البلاغة يعد الاساس الاول لما وضع بعد ذلك فيها من علوم ، وفيه لمحات بيانية رائعة وخطرات بلاغية مستطرفة ، وبخاصة ما يتصل بعلم المعانى وذكر اساليب التعبير المختلفة بما يقع فيها من ذكر وحذف واظهار واضمار وفصل ووصل ، ومواطن البلاغة فى استعمالاتها المتعددة كما نجد فيه نظرات فى ضروب من المجاز والتشبيه • ومما جاء فى ذلك مثلا « باب استعمال الفعل فى اللفظ والمعنى » والذى منه « ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : « واسأل القرية التى كنا فيها » انما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الاصل ، ومثله : بل مكر الليل والنهار ، وانما المعنى بل مكركم فى الليل والنهار ، ومثله فى الاتساع قوله عز وجل : ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء » فلم يشبهوا بما ينعق ، وانما شبهوا بالمنعوق به ، وانما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع • ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى •• ثم يستشهد من قول الخنساء بالبيت :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبال وادبار

فيقول فى ذلك : « فجعلها الاقبار والادبار ، فجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم . »

وعلى هذا يصح ان يعد ما جاء فى كتاب سيبويه من نحو بلاغى او بلاغة نحوية البداية لعلوم البلاغة التى ظهرت بعد هذا العصر . وكان الكتاب فوق ان يكون كتاباً فى النحو فقط .

٧ - تصنيفه على اساس الابواب والفصول التى تجمع مسائل كل موضوع فى باب وفصل واستيعابه الا قليلا لكل المسائل النحوية وما يحتاج اليه طالب النحو كالكلم واقسامه والفاعل والمفعول والفعل واحكام المصدر والحال والظرف والجر والبدل والمعرفة والنكرة والمبتدأ والخبر والنسبة والاضافة والتثنية والتصغير وغيرها وهو يختلف كثيراً عما سبق تأليفه من قبل . على انه وان رتب على الابواب فكثيراً ما ترد مسائل فى باب وهى احرى ان تكون فى ابواب أخر كما ان بعض المسائل قد تتكرر فى ابواب عدة .

مصادره :

يمثل الكتاب غاية النضج التى بلغ اليها النحو العربى فى هذا العصر ، وهو يجمع بين المسائل المنقولة والفكرة النحوية ، فان سيبويه لم يقتصر فيه على رواية اقوال العلماء بل كان يوازن ويعلل ويقيس ويولد ، ويرجح رأياً على رأى ، ويستشهد باقوال من أخذ عنهم من العرب الذين يوثق بفصاحتهم ومع ذلك فيمكننا ان نرد مادة الكتاب فى اغلبها الى المصادر التالية :

١ - ما رواه عن الخليل بن احمد فى مجالسه ، وعقده بلفظ الخليل ، ولطول ما لزم الخليل كان ما اخذه عنه اكثر بكثير مما أخذه عن غيره ، ويكاد يكون اكثر مسائل الكتاب ، ويقول فى ذلك قال الخليل او سمعته من الخليل ، او يقول : سألت الخليل عن كذا ..

٢ - ما أخذه عن يونس بن حبيب النحوى ، وقد نقل عنه كثيراً ايضاً ، وقد ينقل عنه ابواباً برمتها ، فمن ذلك انه نقل عنه فصلين فى التصغير ثم قال : « وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما اذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس » .

٣ ـ ما رواه عن استاذه ابى الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد الملقب بالاخفش الاكبر ، وقد تخرج به سيبويه والكسائى •

٤ ـ ما حكاه من اقوال شيخه ابى عمرو بن العلاء ، وقد يوازن بين قوله وقول الخليل ويونس •

٥ ـ ما تحدث به عن أبى زيد الانصارى ، فاذا قال : حدثنى من اثق بعربيته فانما يريد « أبا زيد » •

٦ ـ ما حكاه عن أبى جعفر الرؤاسى عالم أهل الكوفة وهو من اوائل من صنف فى العربية ، وكل ما جاء فى الكتاب بقوله : « قال الكوفى كذا •• » انما يعنيه به •

٧ ـ ما رواه هو عن العرب ومن شافههم ، فيقول مثلا : ان هذا البيت أنشدناه أعرابى من افصح الناس وزعم انه شعر ابيه ، ويقول : سمعنا ذلك من العرب ، وسمعنا من يوثق به من العرب وهكذا •

فاذا اضفنا الى كل ذلك ما اضافه هو بموازنته وترجيحه وقياسه وتعليله ، ثم ما بين ذلك من عرض المسائل والربط والتفريع والتنسيق ، كان الكتاب بذاته من اجل ما ألف فى هذه اللغة •

كمال ابراهيم